المرأة المسيحية و تحديات العصر

بقلم: روفائيل ياقو هرمز

لاشك ان المرأة المسيحية لم يكن حالها من قبل احسن من حال كل النساء في تلك المجتمعات السابقة. فكان وضعها الاجتماعي والانساني لا يحسد عليه. فكانت المرأة في تلك السنين الغابرة تئن تحت وطأة احمال واثقال المتراكم من العادات والتقاليد البالية التي كانت سائدة وتوارثتها الاجيال، من نظرة استخفاف والسخرية بالانثى الى قساوة الرجل عليها عبر قرون في مجتمعات يسودها تسلط الرجال. كانت المرأة تتعرض لشتى انواع الاهانة واستخدام القوة والقهر الجنسي لأخضاعها لسلطة الرجل الذي كان في الموقع الذي يحيى ويميت في ذلك الزمان. فلم يكن لها اي اعتبار انساني او اجتماعي تعامل من خلاله المعاملة التي تستحق العناية والاحترام وتبادل المشاعر والعواطف الانسانية والعلاقات الاجتماعية المتكافئة بينها وبين الرجل المرتبطان ببعضهمامن خلال علاقة الحياة الزوجية او العلاقات الاجتماعية العامة في المجتمع الواحد، بل في اغلب الاحيان كانت تتعرض للقتل من دون سبب يستوجب ذلك وبحسب ارادة الرجل زوجاً كان ام اباً ام اخاً وتحت مبررات اصطنعها الرجل والمجتمع المتسلط عليه الرجل مثلاً لغسل العار كما هو مألوف حتى في هذه الايام، رغم اننا نعيش في مجتمع عالمي متقدم وصل الى اعلى درجات من الثقافة والانفتاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. ولكن ثمة سؤال لم يلق جواباً من احد!؟ لماذا لا يُسأل الرجل ولا

يحاسب؟ مَن المسؤول ومن الذي يدفع هذه الفتاة او هذه المرأة الى الوقوع في فخ الشهوات وحبائل رغبات الرجال، أليسوا هم الرجال انفسهم!؟ وتكون المرأة دائما في قفص الاتهام لأنها انثى وحسب. لكن لا احد يكشف الغطاء عن افعال الرجال النتنه وتصرفاتهم الغير مسؤولة، لأن الرجل هو صانع القرارات وصائغ القوانين وواضع التشريعات، يرسم اطرها حسبما ترتئي نفسه وكيف ما يحلو له للنيل من انسانة تشاركه الحياة، أليس هذا قمة الخطيئة وعصيان لمشيئة الله في الخلق؟

لكن بعد الخلاص الذي جاء الى العالم بالفداء على خشبة الصليب بسيد السلام والحرية، وحرر العالم تحررت معه المرأة (الانثى) ورد اليها اعتبارها الذي رافقها منذ بداية الخلق للأنسان ودخلت حياة جديدة مطمئنة ملئها المحبة والمساواة في الحقوق والواجبات والمسؤوليات بين الرجل والمرأة. الا ان المرأة المسيحية اصبحت اليوم في مواجهة مباشرة مع حقيقة لا يمكن تجاهلها او التخطي من فوقها وهي دورها في تحديات العصر الحديث لما حققه الانسان من تطور على مستوى عالٍ في مجالات الحياة المعاصرة، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، فهي عملية

صعبة التوازن تتطلب بصيرة في الايمان ودقة في الادراك وحسن التصرف وبذل جهد اضافي غير اعتيادي لمواجهة هذه التحديات وتطورات العصر الحديث والموازنة بينها وبين ما تأمر به شريعة الله وترشدنا اليه من افعال واعمال حسنة نرى من خلالها الامور على بساطتها يمكن مطاوعتها لما هو افضل ومقبول في هذه الحياة وفي الآخرة. وكما تُعلمنا وترشدنا اليه الآية الكريمة لقول سيدنا المسيح: « وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يوحنا ٨:٣٢). وطبقاً للقول الكريم وعملا به فان تعاليم سيد الحق تحرر المؤمن من كل قيود الظلال ومن العقد التي كانت عالقة في اذهان البشرية عبر مئات السنين للمجتمعات السالفة قبل الميلاد، ليس فقط في الجانب الروحي للأنسان فحسب انما في الجانب المادي والاخلاقي لوضع حدٍ للتمايز والفوارق بين جميع البشر على انهم مخلوقون على صورة الله وكمثاله، ذكوراً واناثاً ومباركين من الله، فليس هناك ما يفرق بينهم بسبب الجنس او اللون او القومية او المعتقد او اللغة، فالعدالة عامة تشمل الجميع والبشر متساوون في الخلق وفي الحقوق والوجبات، وليس هناك للرجال المرتبة الاعلى على النساء ولا للنساء المرتبة الادنى في الحياة، رغم الاختلاف في الاداء الوظيفي لكلا الجنسين لأستمرار الحياة الطبيعية. والمساواة في الحقوق لا يعني ابداً بان الرجل والمرأة متماثلان وانما تعني انهما مكملان احدهما لدور الاخر ولا يمكن للحياة ان تستمر دون تحقيق هذا التكامل من خلال هذا الاختلاف الطبيعي الذي اوجده الله لكي يعطي الحياة استمرايتها.

ونقرأ في اعمال الرسل قول الله: «لأن الله سيسكب روحه على كل جسد، على البنين والبنات والعبيد والاماء ولن يكون هناك تجريد من الاهلية بسبب الجنس». (اعمال الرسل ٢:١٧و١٨) هذا ما يعلمنا قانون الله، الجميع مقدسون ويسكب عليهم روحه القدوس والجميع متساوون في الاهلية والحقوق ولا شيء يفرق بين البشرية، فاين هي قرارات الرجل وماذا تعني تشريعات الرجال امام قانون الله وعدالة السماء لكن تحقيق المرأة المسيحية هذا الانتصار على الواقع المفروض عليها سلفاً وخطوها هذه الخطوات نحو حقوقها التي تعتبر هبة الله لجميع البشر والمساواة بالرجل، لا يعني باي حالٍ الخروج عن طاعة الرجل او التمرد والعصيان عليه،

انما يعني العكس تماماً الطاعة والالتزام التام والخضوع لتعاليم الله. فالتمرد عُملة مصطنعة ليس له مكان في ذهن المرأة المسيحية اذ انها ترتقي بالمستوى الاعلى من الوعي الثقافي والاجتماعي فهي تجيد التصرف السليم في تبادل العلاقات والاحترام المتكافئ بينها وبين زوجها فقد تجاوزت المرأة المسيحية كل النظرات والافكار المتوارثة التي شكلت الاعراف والتقاليد والعادات التي كانت تسيء فهم المرأة ككيان انساني. ففطرة المرأة وحبها لتكوين اسرتها الجديدة وتحمل مسؤولياتها المستقبلية، يجعلها تصرف طاقة اضافية غير اعتيادية من وقت راحتها وعواطفها ومشاعرها للمحافظة على استمرار هذه الاسرة ويزيدها قوة الترابط ومحبة لزوجها نحو الانجذاب الايجابي له وكذلك فطرة الانسان الى الاجتماع والحاجة الغريزية للجنس الاخر، كل هذا يبطل دوافع هذه العملة المصطنعة ويكشف زيفها بحق المرأة وضعفها من خلال مواصفاتها الجسدية. فقد بات واضحاً للعالم المتحضر فشل النظرة القاتمة والرأي القائل، بان منح المرأة حقوقها يعني الترجل والخروج عن طاعة الرجل. فقد اثبتت المرأة المسيحية زيف هذه النظرة المتخلفة المصطنعة بارتقائها الى مكانتها الطبيعية في المجتمع واسقاط كل التهم الموجهة الى المرأة اينما كانت بصورة عامة والمرأة المسيحية خاصة بالتزامها السليم لحسن العلاقات الانسانية والاجتماعية والعاطفية والغريزية بينها وبين الرجل، كما ان الرجل المسيحي لم يعد ذاك الذي كان في سالف الزمان، متعجرفاً سلطوياً يصيغ القرارات والانظمة حسب اهوائه ولصالحه للنيل من كرامة وشخصية وكيان المرأة شريكته في بناء الاسرة الجديدة، بل التزامه بتعاليم شريعة الله نحو هذه الانسانة جعلته يتفاعل مع المرأة من منطلق المساواة والتكامل في فهم العلاقات الانسانية المتكافئة بين الطرفين، فلم يعد مستقبل المرأة المسيحية مهدداً بمخلفات الطلاق المتوارث الذي كان سائداً وفي اغلب الاحيان كان قسراً عليها ولم يكن تراضياً، ولم تعد تفكر يوماً كيف تحصل على النفقة من مطلقها الذي جعل حياتها ظلاماً، وسوف لن يكن هناك اخريات غيرها يشاركن في حياتها الاسرية، فقد تحقق للمرأة المسيحية تقدماً كبيراً في خلق علاقات انسانية متكافئة بين الجنسين واصبح الجانبان واعيان

يتفهمان دور العلاقات الانسانية والاجتماعية والاخلاقية التي يجب ان ترتقي الى فهم صحيح لمدى قدسية هذه العلاقة التي لا يمكن التجاوز عليها، فحاجة الرجل والمرأة لبعضهما هي كالخبز لأستمرار الحياة على الارض.

الكتاب المقدس يعلمنا قدسية العلاقة التي تربط الرجل والمرأة او الزوج والزوجة، اذ يقول القديس بولس الرسول: «الرجل رأس المرأة». فالمرأة هي جسد الرجل وهو رأس هذا الجسد وفصلهما عن البعض يعني موتها. والرأس هنا لايعني الرئاسة والتسلط او التحكم او السيطرة واغتصاب المرأة حقوقها كما يفسرها البعض ليفهمها الاخرين بالطريقة التي يريدون دس السم بالعسل، لأنه لا يحلو لهؤلاء ان تعطى هذه الانسانة دورها الحقيقي في الحياة وعتق رقبتها من قبضة الظلم واعطائها حريتها. فالرئاسة تعني مسؤولية الرجل تجاه جسده اي تجاه المرأة فهو يحبها ويعتني بها ويلبي احتياجاتها ويغذيها وينميها، ومن هو الذي لا يعتني بجسده. كما ان خضوع المرأة لزوجها لا يعني الرق والعبودية وتسلط الرجل عليها والتحكم بها، انما يعني الاحترام المتبادل والطاعة والمحبة لزوجها المخلص لها. وهنا علينا (الرجل والمرأة) ان نقف قليلاً لنعي القول، ان حرية المرأة ومنح حقوقها لا يعني الخروج على المألوف واللائق في المجتمع وعن ما يأمر به الله، فحرية المرأة وحقوقها الشرعية لا يعني تمردها على الاخلاق والعلاقات الاجتماعية والانسانية ولا يعني خروجها عن الطاعة والاحترام المتبادل او الشذوذ عن المألوف في المظهر والعادات والتقاليد التي تؤمن للمرأة حقوقها وتحفظ كرامتها وانسانيتها، ونأمل من المرأة اينما كانت والمسيحية خاصة ان ترتقي بنفسها الى هذه الدرجة من السمو الاخلاقي والثقافي في العلاقات الاجتماعية والانسانية المتكافئة مع الرجل، لأنها الطريق السليم والقارب الامين الذي يوصلنا الى شاطئ الامان في الحياة اليومية، والنواة الاولى في طريق الاصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي المنحرف عن اطار وقواعد الاخلاق لتعاليم الله وثورة على واقع هذه العلاقات المتخلفة وتحدياً لتطورات العصر الحديث الى الحياة الآمنة الديمقراطية الحرة والمتوازنة لطرفي المعادلة الانسانية:
انسان الرجل = انسان المرأة.